الرحلة والرحالون

في القرون الوسطى

لنقولا زيادة

وانا مضطر الآن ان اكتفي بعدد قليل من رحالي القرون الوسطى لاحدثكم عن أسفارهم ، لان ذكرهم كلهم يطول بنا ، والذين احب ان اتحدث عنهم هم الحجاج المسيحيون الذين زاروا الارض المقدسة . وهؤلاء قد جاءوا بلادنا قبل العصر الذي حددناه في بدء الحديث اليوم

﴿حجاج القرن الرابع﴾ نجد بين هؤلاء اربعة كان لبعضهم شأن كبير لا في الاخبار والرحلات فقط ، ولكن في تطور المسيحية نفسها ايضاً . وابعد هؤلاء اثراً جيروم الذي هبط بيت لحم في القرن الرابع واتخذها مسكناً له ، واشتغل في اثناء ذلك بنقل الكتاب المقدس الى اللاتينية وقد كان جيروم سبباً في جذب كثيرين الى البلاد المقدسة رجالاً ونساء[1]

واقدم ما كتب عن الارض المقدسة على ما وصل الينا كتاب (حاج بوردو) ونحن لا نعرف اسم هذا الكاتب وكل ما اتصل بنا انهُ فرنسي من مدينة (بوردو) ، زار البلاد سنة ٣٣٣ م ، وكتب دليلاً لمن يزورها بعده ، معتمداً في وصف الاماكن على ما خبره بنفسه ، وفي الاخبار على ما سمع من غيره . ومن الامور التي ذكرها انه رأى الغار الذي كان سليمان يحبس فيه الجن والشياطين

وبين حجاج هذا القرن ايضاً سيدتان الاولى القديسة (باولا) ، والثانية القديسة (اتريا) او (سلفيا) . اما الاولى فقد لبت دعوة جيروم . وكانت ثرية جداً ، فاقامت في الطريق بين يافا وبيت لحم تكايا ونُزُلاً للحجاج [2] . وسكنت بعد ذلك بيت لحم حتى الموت . وقد كتب جيروم اخبارها ورسائلها بنفسه [3] . واليك وصف بيت لحم منقولاً عن القديسة باولا [4]

« في قرية المسيح كل شيء ، خلا التسابيح ، هادىء . حيث قلبت وجهك سمعت الهليل . فالحارث القابض على محراثه يصيح هللويا ، وحارس الكرم يصرخ هللويا ، والفلاح يرتل مزامير داوود في عمله . هذه اشعار واناشيد السكان في هذه البلاد . وهذه هي اغاني الحصاد عندهم . لا يهمنا في الواقع ان نفكر فيما نعمل ، ولا كيف نظهر ، بل ان نرى ما تتوق اليه نفوسنا [اي الخلاص] »

واما القديسة سلفيا فقد كانت رحلتها اوسع نطاقاً ، وابعد مدى ، اذ شملت مصر وسيناء وفلسطين وسوريا وبعض آسيا الصغرى ، وكانت دقيقة في كتابتها حتى حملت الاستاذ بيرلي على القول[5] « بان معرفتنا عن الشرق كانت يمكن ان تكون صحيحة لو ان الكل كتب مثلها »

---

(١) Bliss. p. 51 (٢) Bliss p. 50 (٣) Rappoport p. 266 (٤) Rappoport pp. 264-5
(٥) راجع Bliss p. 57

وقال الدكتور بلس [١] « لم يكتب احد عنها قبل الحروب الصليبية » . وقد كانت زيارتها في اواخر القرن (٣٨٥ م) واقامت في القدس ثلاث سنوات . والراجح انها فرنسية الاصل ، وقد لوحظ انها كانت تقابل بالحفاوة والتعظيم اينما حلّت مما يدل على نبل اصلها وشرف اهلها . ونحن نجهل هذه الامور لان القسم الاول من المخطوطة مفقود الى الآن . ولم نسلم مع كل عنايتها من ذكر ما يبدو لنا صعباً تصديقهُ . فهي تقول انها رأت شجرة الحق التي غرسها موسى وهارون في صحراء التيه ، والمكان الذي اقام فيه بنو اسرائيل العجل الذهبي والعليقه التي كلّم موسى امامها الرب بعد ان رآها تتقد . ومن اجل ما تركتهُ لنا وصف حفلة تقبيل الصليب يوم الجمعة الحزينة اذ تقول [٢] (جلس المطران في مقعده الخاص ، ووضعت امامه طاولة عليها صندوق فضي يحوي خشب الصليب المقدس . فتح الصندوق ووضع ما فيه على الطاولة ، فوضع المطران يديه على الخشبة وتلبه الاساقفة المحيطون به للحراسة . ثم تقدم الناس واحداً واحداً فانحنوا ثم لمسوا الصليب بجباههم اولاً ، ثم بعاجرهم ، ثم قبلوه ومرّوا . والغاية من وجود الاساقفة هو المحافظة على خشب الصليب اذ كان من عادة البعض انهم اذا اقتربوا لتقبيله عضّوا جزءاً منهُ وهربوا للتبرك)

﴿ حجاج القرن الخامس ﴾ يحدثنا القديس داود الانكليزي اول حجاج هذا القرن ، انهُ اوحي اليهِ والى اثنين آخرين ان يتجهوا الى القدس ، ليقوموا بواجب الزيارة للاراضي المقدسة فلما اجتازوا البحر الانكليزي وهبطوا فرنسا لم يستطيعوا التفاهم مع اهلها ، فحلّت نعمة الروح القدس على داود فصار يتكلم بكل لسان ، فلم يبق ثمة صعوبة ولما وصل القدس قابل البطريرك الذي كان قد اوحى اليهِ بقدومهم ، بالتبجيل وسام القديس داود رئيس اساقفة . ثم طلب اليهم ان يحضروا حجج اليهود الدينية فقاموا بالامر ، حتى اقنعوا الكثيرين الذين اخذوا يدخلون في المسيحية افواجاً . وقد كافأ البطريرك داود على خدماته بهدية مقدسة حوت مذبحاً ، وجرساً كبيراً وهراوة وحلة منسوجة من الذهب . وقد كان لكل من هذه عجائب وكرامات . ولما اعتزم داود العود الى بلاده حملت الملائكة له كل هذه اذ لم يكن في استطاعته ان يفعل ذلك بنفسه

وعندنا من رواد القرن الخامس ايضاً ثيودوسيوس وهذا ، على ما يتراءى لنا من المغرمين بمكان اعتماد المسيح . فهو يذكره بشيء من العناية والاطالة ، ويصف العمود الرخامي الذي رآه في نفس مكان العماد ، والصليب الذي يعلوه وكنيسة يوحنا المعمدان . ويقول ان الجبال الكثيرة المحيطة بالاردن قد رقصت يوم اعتماد المسيح في النهر وان الناظر اليها الآن — في زمنه — يخيل اليهِ انها قافزة من مكانها ومن هذا نرى ان حجاج هذا القرن لا يتسمون بسمة الكتاب الحريصين على الحقائق كثيراً

اما في القرن السادس فقد كثر الاهتمام بالآثار المقدسة فانطونيوس يخبرنا انهُ رأى في

---

[١] Travel & Travellers p. 47 (٢) Bliss p. 54 (١)

صفورية (سل العذراء) وفي المناصرة الكتاب الذي تعلم فيه المسيح «الالف باء» وان نساء هذه المدينة جميلات لانهن قريبات العذراء. وهم يقولون انا ان اهل الناصرة كانوا يكرهون المسيح حتى انهم كانوا يحرقون آثار اقدام السياح المسيحيين ويأبون ان يأخذوا منهم النقود قبل طرحها في الماء لتطهر من دنس ايديهم [١] والطوبيري ينقل لنا ان البحر الميت لا يصلح للسباحة لان الاجسام تطفو في مائه !!...

﴿ القرن السابع وما بعده ﴾ : منذ القرن السابع تغيرت الاحوال في الشرق الادنى كله. ففي اوله كانت الحروب بين الفرس والبزنطيين واحتلال الاولين للاراضي المقدسة، وما صحب ذلك من تدمير الكنائس وغيرها من اماكن التعبد والقداسة. ولما استعاد البزنطيون البلاد رمموا بعض ما تهدم ومن ذلك كنيسة القبر المقدس. وفي اواسط هذا القرن كان العرب قد احتلوا كل سوريا ومصر ووطدوا حكمهم في هذه الديار، والذي نعرفه ان هذا الاحتلال لم يمنع الحجاج من المجيء الى الاراضي المقدسة [٢] بل ان العرب شجعوهم على القيام بهذا الفرض الديني. فالحجاج الذين زاروا البلاد في العصر الاموي مثلاً، لا نجد في كتاباتهم اثراً للشكوى او التذمر. الا اننا نلحظ فيهم انهم اخذوا يفدون الى فلسطين بطريق مصر، بدل طريق آسيا الصغرى لما كان من العداء بين العرب والروم. وقد وقعت مع ذلك حوادث فردية عدائية نحو بعضهم بسبب وشاية بعض اليهود فقط. ولما انتقل الحكم الى العباسيين، وقام هرون الرشيد اتسع نطاق الزيارة والتجارة مع العرب في زمنه على شكل لم يعرف قبلاً

وفي آخر القرن العاشر احتل البزنطيون جنوبي فلسطين، وبذلك تدفق الزائرون اليها، ثم استردها منهم الفاطميون في مصر. وهؤلاء ايضاً فتحوا باب الحج والزيارة للغربيين على مصراعيه، حتى اوائل القرن الحادي عشر، ايام الحاكم بامر الله. وفي زمنه زار البلاد المقدسة جيربرت، الذي صار فيما بعد بابا لرومية، وكان ممن لقي اضطهاداً في حجه. لذلك لما عاد الى اوروبا واعتلى الكرسي البابوي، دعا الاوروبيين الى تخليص الاراضي التي عاش فيها (المخلص) وصلب وبعث، من أيدي المسلمين. ومنذ ذلك الحين صار الحجاج المسيحيون يأتون مدججين بالسلاح [٣]، فقلق ذلك بال الحكام، وحملهم على التضييق عليهم خشية منهم

ارغولف: مطران من بلاد الغال، زار الاراضي المقدسة ودمشق، وصور، والاسكندرية، والقسطنطينية في أواخر القرن السابع، وقضى في القدس تسعة شهور وتردد على كل البقاع المحيطة بها. وقد املى أخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه ادمنان

على ان الاخير هذا لم يوضح كيف وصل ارغولف اليه، ويعتبر كتابه دليلاً صحيحاً ولا سيما انه رسم خرائط تقريبية لكنيسة القبر المقدس وغيرها. على أنه لم يستطع ان يتخلص من الروح الدينية العامة التي كانت تسيطر على اذهان الجماعة في تلك العصور،

(١) Dies p. 60 (٢) Rappoport pp. 267 & 270 (٣) Rappoport pp. 272--3

والمبنية على ان للآثار المقدسة فعلاً عجيباً في شفاء الامراض وغفران الخطايا ، فهو يعدد الآثار التي رآها ، مثل الكأس المقدسة الفضية ، والاسفنجة ، والحربة التي شهدت صلب المسيح . وقد لمسها وقبّلها أيضاً . ونحن نعرف منه أيضاً ان الصليب الحقيقي موجود في القسطنطينية [١] وقد زار برية الاردن ووصف النهر ومكان العماد ، والجراد والعسل البري الذي استعمله يوحنا في حياته ، اذ يقول [٢] « وفي البرية نوع من الجراد صغير لا يتجاوز واحده حجم الاصبع ، يسهل القبض عليه لانه يقفز ولا يطير ويقلى عندها بالزيت ويستعمل طعاماً وفيها أيضاً شجر له أوراق كبيرة مستديرة ، اذا ضغطت خرجت منها عسارة حلوة . وهذا هو العسل البري » . وذكر أنه توجد على جبل الزيتون (الطور) كنيسة الصعود لاسقفها ، لان العاصفة التي تهبّ كل سنة في نفس الوقت الذي صعد فيه المسيح الى السماء تعصف بالسقف وبكل المواد لمثل هذا البناء ، كما شاهده بنفسه

ويقول في مكان آخر « اعتاد الناس ان يفدوا الى القدس جماعات كبيرة في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) من كل سنة للاحتفاء بعيد الصليب المقدس ولتبادل السلع والبضائع حتى انهُ كان من الصعب اختراق طرق المدينة لكثرة الاقذار المسببة عن الحيوانات الكثيرة التي يؤتى بها . ولكن العناية الالهية كانت تبعث على أثر مغادرة الناس للمدينة بامطار غزيرة تنظفها »[٣]

﴿ منديل المسيح ﴾ وبين الآثار المقدسة التي رآها ارغولف المنديل الذي غطي به رأس المسيح في القبر . « وقد سرقه يهودي بعد قيامة المسيح وخبأه . ولما حضرته الوفاة جاء بولديه وخيّرهما بين كل ثروته وبين المنديل فكان من جراء ذلك ان شقي الاول وخسر كل ما ورث ، وسعد الثاني واثرى ببركة ما أخذ وبقي هذا المنديل ارثاً في عائلته جيلاً بعد جيل حتى نشب نزاع بين الذين كانوا يؤمنون بقدسيته والذين كفروا بها من أفراد العائلة . فاحتكموا الى الامير (؟) في ذلك . فاشعل النيران في الساحة العامة ثم وضعه فيها ، لكن النيران لم تمسه قط بل أخذ يرتفع ويعد دقائق هبط على الفريق المؤمن أي المسيحيين الذين كانوا طول الوقت يصلون ويضرعون الى المسيح ان ينبئهم إياه »

اما القرن الثامن فيطل سياحه ويلبولد الانكليزي الذي زار البلاد في اوائله (٧٢١ — ٧٢٧م) وقد كان من عادة الكثيرين من جوابي تلك العصور وحجّاجها ان يكتفوا بذكر اسماء البلاد التي مروا بها قبل وصولهم فلسطين ، فاذا وصلوها ذكروا اخبارها بالتفصيل . وأما ويلبولد فانهُ يصف رحلتهُ كلها في اواسط اوربا واجتيازه الالب وروما ، والبراكين التي مرّ بها . ويقول مثلاً ان سكان المدينة المجاورة لبركان اتنا في صقلية يدفعون عن انفسهم غائلة ثوران هذا البركان برفع وشاح القديسة « اغاثا » المدفونة عندهم فيهدأ ثائر باب جهنم

ولما كان العرب يخشون عندها تجسس الغربيين بسبب ما كان بينهم وبين الروم من حروب ،

(١) Early Travels in Palestine pp. 8—9 (٢) Travel & Travellers p. 65
(٣) Early Travels p. 1.

ولما كان عدد رفاق ويلبولد قد بلغ الثمانية فقد انتي القبض عليهم وزجوا في السجن الى ان حقق معهم، ومثلوا امام الخليفة يزيد الثاني (٧٢٠—٧٢٤) فلما عرف بلادهم وغايتهم اطلق سراحهم وزودهم برسائل تمكنهم من التجول في البلاد، واعفاهم من ضريبة الحج [١] واتخذوا القدس مركزاً لزيارتهم، وقد مرّوا في احداها بحمص فزودهم حاكمها بكتاب لكل اثنين منهم وأمرهم ان يسافروا اثنين اثنين فقط، اذ لم يكن سبيل لهم ان يحصلوا على طعام يكفيهم جميعاً اذا سافروا معاً [٢]

وقد كان نقل البلسم من فلسطين ممنوعاً وكان عقاب من يخرجه الموت ولكن ويلبولد رغب في اخذ شيء منه الى بلاده فملأ انبوبة صغيرة منه، ثم وضعها في انبوبة اخرى اكبر منها وملأ الثانية زيتاً صخرياً لعله النفط او القار، حتى عبرت الاولى. فلما وصل الى صور وفتشوا امتعته، منعهم الزيت وراثحته من ان يعرفوا بوجود البلسم [٣]

برنارد الحكيم: هذا نموذج سيّاح القرن التاسع الميلادي وهو القرن الاخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية. وبرنارد جنى بعض ثمار العلاقات الطيبة التي توطدت بين الدولة العباسية في الشرق والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب؛ بسبب صداقة هرون وشارلمان. وهذا سائح لا يبدأ الرحلة قبل ان ينال رضى قداسة البابا وهو يمر بالاراضي الايطالية التي كانت خاضعة للنفوذ الغربي، فيحمّله سلطان باري رسائل الى امير الاسكندرية والى امير الفسطاط في مصر. وكذلك كان شأنهُ في كل مدينة مرّ بها ان يعطى الى السلطة الحكومية في المدينة الثانية رسالة لقاء دينار او دينارين، والطريق التي يسير فيها من مصر الى فلسطين الطريق البري مخترقاً سيناء فاذا وصل الرملة سار الى القدس بطريق عمواس، ونزل ضيفاً في النزل الذي بناه شارلمان

وبرنارد اول من ذكر «فيض النور» في يوم السبت السابق للفصح المقدس، فقد قال «ويجد الداخل الى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه. فاذا كان صباح يوم السبت السابق ليوم الفصح بدئت الصلاة في الصباح حتى اذا تمّ ذلك، انشد الكل بصوت رخيم «كيرياليسون» الى ان ينزل الملاك وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس؛ ثم يسمح للشعب ان ينير كلٌّ قنديله». وعلى ذكر ما اورده برنارد انقل ما كتبهُ ابو الفرج عن فيض النور زمن الحاكم في اضطهاده للنصارى. يُقال انهُ وشى بعضهم الى الحاكم ان النصارى يوم فيض النور يدهنون السلاسل التي تعلق بها القناديل بزيت البلسم فاذا جاء الحارس الغربي المكلف حراسة القبر في ذلك اليوم خشية التلاعب فيه، وخلع بابه اشعلوا البلسم الذي على السلاسل من ثقب خفي فتضاء القناديل وعندها تنهمر دموع الفرح من مآقي الناس ويصيحون «كيرياليسون» حاسبين ان هذا النور قد هبط من السماء وبذلك يثنوى ايمانهم»

(١) Early Travels p. 20 (٢) Early Travels p. 15—6
(٣) Rappoport p. 271 and Early Travels p. 68